بعض الجوانب السلبية في فكر اوجيست كونت

جعفر عبد الامير علي الياسين

مقدمـــة :

بالرغم من الاضافات والاسهامات التي أضافها وساهم بها عالم الاجتماع الفرنسي (أوجيست كونت) في حقل علم الاجتماع إلا أن هناك ثمة جوانب سلبية في بعض آرائه يمكن التعرف عليها من خلال هذا البحث الذي يكتسب - في نظري - أهمية خاصة ترتبط بالاهمية التي أسبغها علماء الاجتماع الغربيون خاصة على عالم الاجتماع الفرنسي (أوجيست كونت) Auguste Conte واعتبروه مؤسساً لعلم الاجتماع خلافاً للحقيقة والواقع ، ولم يدر بخلدهم ان العلامة (عبد الرحمن بن خلدون) (١٣٣٢ - ١٤٠٦) يعتبر في مقدمته المشهور (*) ، المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع حيث كان يدعوه (العمران) أحياناً و (الاجتماع الانساني) أحياناً أخرى .

وفي هذا البحث سأحاول ان أضع (كونت) وبعضاً من الآراء التي جاء بها على بساط البحث ليتبين للقارىء الكريم هل ان (كونت) يستحق

كل تلك الاهمية والشهرة التين أسبغتا عليه ؟

يتضمن هذا البحث خمسة أقسام هي :

اولاً : بعض الجوانب من حياته :

لا يخفى ما لحياة الناس الخاصة من أثر في آرائهم وسلوكهم في كثير من الأحيان ، و (كونت) واحد منهم لذلك ارتأيت ان أعرض بعضاً من جوانب حياته الخاصة ، لأن هناك ارتباطاً بين بعض جوانب حياته المضطربة وكثير من الاراء الخاطئة التي جاء بها .

ولد « ايزيدور اوجيست فرانسوا ماري كونت » في « مونتبلييه Montpellier بفرنسا ، وأمتدت حياته من (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) أي ان ولادته كانت بعد الثورة الفرنسية (١٧٨٩) بتسع سنوات ، وكان للثورة الفرنسية أثر سيىء في نفسه ، كما سنرى فيما بعد . التحق كونت وهو في السادسة عشرة من عمره بمدرسة البولتكنيك ، ذات الشهرة الواسعة وعندما بلغ التاسعة عشرة من عمره عمل سكرتيراً لـ (هنري سان سيمون Saint -- Simon (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥) ، وهو لم يزل طالباً في تلك المدرسة (١٨١٨) ، ومع ان استاذه (سان سيمون) كان منتمياً إلى الارستقراطية الفرنسيه ، إلا انه أصبح من أوائل الاشتراكيين المثاليين ومشاهيرهم ومن المفكريين الاجتماعيين البارزين ـ أما آراء التلميذ (كونت) فكانت محافظة تقليدية وبناء على ذلك التناقض بين آراء الاستاذ الثورية وآراء التلميذ المحافظة ، تخلى التلميذ عن استاذه عام (١٨٢٢) .

يمكن ان نقسم حياة (كونت) إلى مرحلتين : الاولى مرحلة الدراسة

والتتبع والبحث ، وهذه المرحلة التي لانهمنافي بحثنا هذا بقدر ماتهمنا المرحلة الثانية هي مرحلة اضطراب ومرض ومغامرات عاطفية . وقد أثرت المرحلة الثانيةتأثيراًسيئاً في آرائه فكانت سبباً في « رفض كثير من مؤيديه مسايرته في أوهامه وأحلامه . لأن آرائه الذاتية كانت في نظرهم معول الهدم للنتائج الثمينة التي حصل عليها في النصف الاول من حياته » (١) .

وأكبر الظن ان حالة الاضطراب التي عاشها (كونت) جاءت اليه من التأثيرات السلبية التي رافقت الثورة الفرنسية وأحداثها المروعة ، فوصف (كونت) الآثار السلبية في الدرس السادس والاربعين من كتابة المعروف « دروس في الفلسفة الوضعية » (**) وما رافق تلك الثورة من اضطراب سيىء وفوضى مقلقة وما رافقها من وجود أحزاب متنافرة (٢) . كما إنه عايش الامبراطورية الفرنسية (١٨٠٤ ـ ١٨١٥) وما واجهته هذه الامبراطورية من أزمات إنتهت بغزو دول الحلفاء (بروسيا ، روسيا ، النمسا) لفرنسا (١٨١٤ ـ ١٨١٥) ، وعايش كذلك ثورات هامة في تاريخ فرنسا كثورة (١٨٣٠) ، وثورة (١٨٤٨) وشهد الحوادث الدامية التي وقعت في فرنسا بعد عودة الملك (لويس الثامن عشر) إلى باريس (١٨١٥) ، وحيث قتل كثير من رجال الثورة القدامى ومن البونا برتيين (٣) . تلك هي حالة الاضطراب التي عاشها (كونت) .

وفي عام (١٨٢٥) تزوج من (كارولين ماسان) التي التقى بها لأول مرة عند ما كان يفيد من خدماتها وهي بغي ، وبدأ (كونت) في عام (١٨٢٦) بالقاء سلسلة من المحاضرات العامة في الفلسفة الوضعية ، واضطر إلى الانقطاع عن هذه المحاضرات بسبب مرضه العقلي ـ الذي قارب السنتين والنصف ـ وبعد ذلك حاول أن ينتحر غرقاً في نهر السين ،

ولكنه عاد في عام (١٨٢٩) إلى إلقاء محاضراته (٤) ، ومما تقدم تتضح الحالة المرضية التي إنتابته .

أما مغامراته العاطفية ، فقد أحب امرأة متزوجة مسلولة (كلوتيلد . دى فو Cloilde de Vaux) لم تلبث ان توفيت ، فتركت في نفسه صدى ظل ملازماً له بقية حياته ، وجعله شارد الذهن . « فصلته القصيرة بمدام (دى فو) وموت هذه الصديقة كان سبباً في شعوره بأنفعالات غاية في العنف ، وقد تحولت هذه الانفعالات لديه إلى بعض الأراء التي أخذت تندمج في مذهبه الفلسفي ، ... ، وكان من الضروري ان تؤثر حـــدة عواطفه ، وإهتمامـه في تقرير الفلسفة الجـديدة ، .... ، وكان لابد ان تؤثر هذه الامور جميعها في مذهبه الذي وضع أسسه في المرحلة السابقة » (٥) . كما ان تأثير تلـك (المحبوبة) فيه يتجلى في ان كثيراً من القيم التي تضمنها مذهبه الخلقي كانت مستمدة من تجربته معها ، ونتيجة « لعلاقته بها فقد كان لها تأثير كبير في مبادئه الانسانية حتى أن فلسفته اصطبغت بذلك الطابع الديني الذي يقوم على التضحية والايثار » (٦) .

ويقوم علم الاخلاق لديه على مبـدأ « الحياة من أجل الآخرين » أو « العيش من أجل الآخرين » ، وهذا المبدأ ـ مبدأ الغيرية ـ يتألف من شقين : الاول ، العيش ، والثاني ، الآخرين ، فالشق الاول أساسي للثاني . كمـا تأثر (كونت) بأقوال محبوبته التي « التقط منها بعض الحقائق ، كقولهـا « لخير الانسان أن يكون محباً من ان يكون محبوباً » و « يسأم الانسان كل شيىء ولا يسأم الحب » (٧) . والحب هنا يعني ، حب الانسانية ، فالحب هو القاعدة العامـة لحياة الناس ، كما إنه القاعدة العامة لسيادة الاحترام والتعاون بينهم ، فاذا ساد الحب والتعاون بين الناس يصح وينتظم

المجتمع ، فالمرء لا يحيا حياة فضلى إلا إذا عاش من أجل غيره .

ثانياً ـ قانون المراحل الثلاث :

يعتبر قانون المراحل الثلاث الطابع المميز لفلسفة (كونت) (٨) ، وخلاصته ، أن كل فرع من فروع المعرفة الانسانية يمثل انتقال التفكير الانساني من اسلوب الفهم الديني إلى أسلوب الفهم الميتا فيزيقي ثم اسلوب الفهم الوضعي ، فهو قانون حتمي ـ في نظر كونت ـ تمر به المجتمعات كافة عبر تطورها ، قاطعة تلك المراحل بصورة متعاقبة ، وهذه المراحل هي :

١ ـ المرحلة الدينية (اللاهوتية) (الخرافية) Theologique :

يفسر الانسان في هـذه المرحلة الظواهر بالرجوع إلى إرادة الآلهـة والملائكة والشياطين ، أي يرجعها إلى أسباب وقوى خفية أو خرافية أو خيالية أو اسطورية لا تتصل بالظاهرة نفسها . فالانسان في طوره البدائي وقف حائراً وعاجزاً أمام الظواهر الطبيعية . فظاهرة النمو في النبات مثلاً يعزوها إلى آلهة الانبات ، وظاهرة البرق المصحوب بالرعد يفسرها العقل البدائي بأنها أصوات الآلهة عندما تغضب وتتصارع ، أي أن العقل البدائي أضفى على الآلهة عواطف وتصرفات انسانية ، فهي تثور وتغضب وتتصارع وتتحارب بعضها مع بعض ، وبهذه الطريقة التي تم فيهـا تفسير الظواهر الطبيعية استناداً على تقلبات الآلهة بين الخير والشر لم يكن ، ذلك التفسير ، في الواقع حقيقياً بل كان تفسيراً يرضي عقلية الانسان الاول في الوصول الى تعليل وتفسير الظواهر ، وهذه تسمى مرحلة الطفولة الانسانية .

٢ ـ المرحلة الميتافيزيقية Metaphysique :

وهي مرحلة انتقال بين المرحلة الأولى والثالثة ، وفى هـــذه المرحلة (الثانية) لا يؤمن العقل الانساني بوجود قوى غيبية أو خرافية كما في المرحلة الاولى ، وإنما توجد قوى كامنة في داخل الاشياء قادرة على أحداث الظواهر . فمثلاً ظاهرة النمو في النبات تفسر هنا بوجود قوة الانبـات الكامنة في النبتة نفسها ، والحيوان يحس لأنه يملك روحاً حساسة ، وهذه المرحلة تعتبر متقدمة بعض الشيء على المرحـلة الأولى ، حيث أمكن الوصول إلى قوة وحيدة تفسر الظواهر على نمط الآلهة الواحدة ، وأصبح كامنـاً وقائماً في الظواهر نفسها ، وليس خارجاً عنهـا كما هو الحال في المرحلة الأولى ، وهذه المرحلة تسمى مرحلة الشباب . من ذلك يتضح أن (كونت) لم يقصد بالميتافيزيقيا التفسير الغيبي للأشياء .

٣ ـ المرحلة الوضعية (العلمية) positivisme :

وفي هذه المرحلة تفهم الظواهر بنسبتها إلى أسبابها الحقيقية والمباشرة والبحث عن القانون ـ العـلاقات الثابتـة التي تنظم الظواهر في تعاقبهـا وتوافقها ـ الذي تسير عليه الظاهرة وتخضع له ، كأن تفهم ظاهرة النمو في النبات على النحو الذي يشرحه علماء النبات ببيان الاسباب الكيمياوية المباشرة ، أي ان التفكير الوضعي ابتعد عن التأملات ، والمطلقات ، والبحث في سبب حدوث الظاهرة ، واتجه إلى معرفة كيفية حدوث تلك الظاهرة ، واتبع منهج المشاهدة (الملاحظة) والاستدلال ، وبواسطتهما يمكن معرفة معاملات الارتباط بين الظواهر ، وهـذه المرحلة تسمى مرحلة النضج .

وقد تعرض هذا القانون إلى إنتقادات عدة ، فبعضهم يرى ان (كونت) أخذ التقسيم الثلاثي عن العـالم الايطالي (فيكو G . T . Vico) (٩)

(١٦٦٨ ـ ١٧٤٤) : ثلاث مراحل للتقدم العقلي ، وثلاثة أقسام لوظائف الدماغ ، وثلاثة نماذج للقوى الاجتماعيـة ، وثلاث درجات للمجتمع ، وثلاث طبقات اجتماعية ، وثلاث مراحل دينية ، وثلاث طبقات لتنظيم السلطة في المجتمع .

وهناك رأى يقول أن فكرة المراحل في قانون (كونت) قد هبطت عليه جراء قراءاته المبكرة لكتابات الاقتصادي الفرنسي (تورجو Turgot) (١٧٢٧ ـ ١٧٨١) والـكاتب الفرنسي (كوندرسيه Condercet) (١٧٤٣ ـ ١٧٩٤) ، حيث عرض الاول فكرة التقدم في كتابه المعروف « منهج لمقالتين عن التاريخ الانساني العالمي » بينما عرض الثاني فكرة المراحل في كتابه المعروف « نبذة تاريخية عن تقدم العقل البشري » (١٠) . كما أن فكرة هذا القانون كانت موجودة فعلاً لدى (سان سيمون) قبل ان يلتقي بـ (اوجيست (١١) كونت) . ويصف (بوتومور) و (ربل) ذلك القانون بقولهما : « لا عجب إذا وجدنا (كونت) في تحليله للمجتمع ولتطور الانسانية ـ قانون المراحل الثلاث ـ ميتافيزيقي (***) وغـير موضوعي ويستخدم منهجاً قبليـاً متعالياً ، وينظر اليه نظرة سكونيـة (ستاتيكية) ، معتبراً ان المجتمع وحدة متكاملة ، ومنكراً بذلك وجود الطبقات الاجتماعية نفسها ناهيك الصراع الطبقي » (١٢) . أما (تيماشيف) فيصف قانون المراحـل الثلاث بأنه قانون غـير صادق (١٣) . ويعترض (ولهلم دلتي Wilhelm Dilthey) (١٨٣٣ ـ ١٩١١) على وضعية علم الاجتماع ونزعاته عند (كونت) وسائر الوضعيين والمتعالين ، ويرى أن عـــلم الاجتماع وفلسفة التاريخ قد وقعا في نفس الخطأ فكلاهما يحاول التوصل إلى « مبدأ » أو « قانون » يفسر الظواهر ويحدد مسارها ، وتلك

نزعة ميتافيزيقية ، وقع فيها (كونت) ، حين حاول أن يصطنع قانون الحالات الثلاث (١٤) . كما أن شيخ المدرسة الاجتماعية الفرنسية (أميل دوركايم Emile Durkheim) (١٨٥٨ - ١٩١٧) ، وهو تلميذ (كونت) ، أنكر قانون الحالات الثلاث وانتقد بشدة استاذه ، حين يقنن قانوناً واحداً ، يحدد تطور المجتمع الانساني بوجه عام (١٥) .

ولا نريد أن نقف طويلاً مع قانون الحالات الثلاث . فهو قانون ظاهر البطلان من عدة وجوه ، « فليس بصحيح كما زعم (كونت) في قانونه ان الانسانية كلها تسير على وتيرة واحدة في فهم الاشياء ، وفي ادراك الظواهر ، .... ، فالمراحل التي اجتازها مجتمع ما في هذا الصدد يختلف عن المراحل التي اجتازها غيره ، وليس بصحيح كما زعم (كونت) في قانونه هذا أن كل حقيقة نحا التفكير الانساني في فهمها هذه السبل الثلاث مرتبة على الصورة التي ذكرها ، وليس بصحيح كما زعم (كونت) في قانونه أن هذه الطرق الثلاث وحدها هي التي تردد فيها التفكير في فهم الاشياء ، فهناك طرق أخرى كثيرة اتبعها الانسان المتحضر والبدائي في إدراك الظواهر متأثراً بنظمه وتقاليده وعقائده ، .... ، وليس بصحيح كما زعم (كونت) أن تطور الظواهر الاجتماعية لا يتأثر إلا بتطور التفكير ، فتطور شؤون الاجتماع ينجم عن عوامل أخرى كثيرة » (١٦) . وبنـاء على ذلك فأن (كونت) قد جانبه التوفيق في قانون الحالات الثلاث (١٧) .

ويمكن القول ان قانون الحالات الثلاث الذي أعلنه (كونت) قانوناً للفكر الانساني ، يعتبر قانوناً وضعياً وخيالياً وميتافيزيقياً ، ينقصه التعليل والبحث عن الاسباب الحقيقية ، ولم يربطه ربطاً بالنشاط العلمي للأنسان ،

ولا بتطور العلاقات البسيطة الاساسية القائمة بين الانسان والطبيعة ، كما إننا لا يمكن ان نطلق قانوناً مطلقاً ، ينظر إلى العالم الاجتماعي نظرة مطلقة ، ولا يمكن ان نتصور المجتمع البشري على إنه مجتمع واحد يخضع لنفس القانون ، بل هناك عدة مجتمعات تسير في تطورها وتقدمها كل على طريقته الخاصة في فهمه للأمور ، والظروف المحيطة به ، فالمراحل التي يجتازها مجتمع من المجتمعات تختلف من مجتمع لآخر . « ويمكن القول أن (كونت) كان بعيداً جداً عن الفهم العلمي لقانون ومنطق التاريخ ، ولم يعترف بقوانين التطور التاريخي ذات الطابع الموضوعي ، وإن هذه القوانين هي ، قبل كل شيىء ، قوانين تطور العلاقات المادية الاجتماعية التي تحدد كل النواحي المتبقية من حياة المجتمع ، بما فيها الايديولوجيا » (١٨) .

ولم يكن (كونت) وحده وقع في خطأ تقسيم تاريخ سير المجتمعات الى مراحل بل سبقه في ذلك علماء كثيرون ، وكان على (كونت) ان يتجنب الخطأ الذي وقع فيه غيره ، فكما هو معروف ان (ابن خلدون) كان قد قسم الخط العام الدائري لمسيرة المجتمعات البشرية إلى أربع مراحل هي : البداوة ، والملك ، والحضارة ، والانحلال (١٩) وكذا الحال بالنسبة إلى (كوندرسية) ، الذي نظر الى تاريخ البشرية في مسيرة تقدمية تمر بعشر مراحل متعاقبة تمثل تعاقب تطور المعرفة البشرية (٢٠) .

ثالثاً ـ الفلسفة الوضعية :

يعتبر (سان سيمون) أو من استعمل مصطلح الفلسفة الوضعية ، لأنه كان مؤمناً بظهور مفهوم عالمي جديد يقوم على أساس علمي (٢١) .

وجاءت الفلسفة الوضعية كرد فعل للفلسفة التقليدية ، لكي يقوم التفكير على أسس محدودة (٢٢) ، ثم جاءت الاشتراكية بعد الفشل الذي لحق بالفلسفة الوضعية لعدم قدرتها على تفسير الظواهر الاجتماعية ، ومحاولتها تبرير الانظمة المتفسخة القائمة أنذاك والدفاع عنها (٢٣) .

والفلسفة الوضعية التي ظهرت في القرن التاسع عشر هي فلسفة إيجابية positivism كما يدل عليها أسمها ويعني الايجاب - في نظر كونت - قبول الاوضاع الراهنة وتأييدها ، والعمل ضد أي اتجاه لتغيير تلك الاوضاع « وقد ذكر (كونت) صراحة ان لفظ « الوضعي » الذي كان يصف به فلسفته يتضمن تعليم الناس ان يتخذوا موقفاً إيجابياً من الوضع السائد ، فالفلسفة الوضعية تستهدف تأكيد النظام القائم ضد أولئك الذين أكدوا الحاجة إلى نفيه . » (٢٤) .

كما أن السياسة الوضعية التي يدعو اليها (كونت) تسعى بطبيعتها إلى دعم النظام العام ونشر روح الاستسلام ، والفلسفة الوضعية هي السلاح الوحيد القادر على محاربة « القوة الفوضوية للمبادىء الثورية الخالصة » ، وهي وحدها التي يمكن أن تنجح في « إمتصاص النظرية الثورية الشائعة » (٢٥) . والسياسة الوضعية عند (كونت) تقف ضد أي تغير Change ، فقال في كتابه (دروس في الفلسفة الوضعية) « ان السياسة الوضعية التي هي وحدها القادرة على ان تبث في الناس الشعور بأنه ليس ثمة أهمية حقيقية لأي تغير سياسي في الحالة الراهنة لأفكارهم » . وقال في موضع آخر من الكتاب نفسه ، « صحيح أن من الضروري تحسين أحوال الطبقات الدنيا ، ولكن هذا ينبغي أن يتم دون أدنى تغيير في الحواجز الطبقية ، ودون « تعكير للنظام الاقتصادي الذي لا غناء عنه » .

وقال في (مقال في الروح الوضعية) « سيعلم سادة الارض ان الوضعية تميل إلى تركيز كل قوة في أيدي أولئك الذين يملكون هـذه القوة أيا كانوا » (٢٦) . ومن ذلك يتضح أن وضعية (كونت) تقدم شهادة تدين نفسها ، عندما تعد بتأمين وتطمين الطبقات الحاكمة فتسعى للحفاظ على مصالحهـا .

فعلم الاجتماع الوضعي الذي دعا اليه (كونت) وتلاميذه في القرن التاسع عشر يعتبر إستجابة مباشرة لدعم وتأييد النظام البرجوازي ، مرتبطاً بنوع من المحافظة والرضوخ للنظام الاجتماعي القائم والرغبة في الابقـاء على الأوضاع السائدة والسعي إلى محاربة أي اتجاه يدعو لتغييرها (٢٧) . فيكون (كونت) بذلك قد بشر الطبقة الحاكمة بأنه قد توصل إلى علم جديد ، يعلم الانسان الخضوع والطاعة العمياء للسلطة ، ويقف في وجه الافكار الثورية ، ويكون بذلك قد وضع علم الاجتماع الذي جاء به في خدمة الطبقة الحاكمة (٢٨) . فالوضعية الكونتية كانت تمجيداً للنزعـة التسلطية ، تكيل المديح والثناء للسلطة وتلزم الناس بالطاعـة والخضوع لها . يقول (كونت) بصدد ذلك : « ما أجمل ان نطيع عندما يمكننا الاستمتاع بالسعادة التي يجلبها اعفاء القادة الحكماء والجديرين لنـا من المسؤولية الملحة المتعلقة بالبحث عن اتجاه عام لسلوكنا » (٢٩) . فالسعادة في نظره تتجسد بطأطأة الرأس والخضوع والطاعة المطلقة للقوة والسلطة ، مهما كان نوع تلك السلطة .

تلك هي فلسفة (كونت) الوضعية ، والتي قلما نجد في الماضي فلسفة تطالب بمثل هذا الالحاح وبمثل هذه الصراحة ، بأن نستخدم في حفظ السلطة القائمة ، وحماية المصالح الموجودة من كـل هجوم ثوري (٣٠) .

لذلك تعرض المذهب الوضعي عند (كونت) إلى انتقادات لاذعة . فلقد سخر (ماركس) من الفلاسفة الوضعيين الذين هاجموا مثالية (هيجل) ، كما انه احتقر « النزعة الوضعية » واتهمها بالانتهازية (٣١) ، فقد وصف (ماركس) هذا النبي الوضعي (كونت) بأنه لا يعدو أن يكون تلميذ مدرسه متفوق (٣٢) . ورأى (ماركس) هذا لا يدعو للغرابة فأشتراكيته مادية ، والوضعية فلسفة مثالية . ويقول (بوبوف) أن الوضعية تمثل اتجاهاً رجعياً ذاتياً مثالياً في الفلسفة وعلم الاجتماع (٣٣) .

كما أن المنهج الوضعي الذي استخدمه (كونت) في الدراسات الاجتماعية قد جانبه التوفيق أيضاً . فلو عملنا موازنة ـ في ذلك الصدد ـ بين (ابن خلدون) و (كونت) لوجدنا أن كلاً منهما دعا إلى المنهج الوضعي الذي قوامه الاستقراء والملاحظة ، إلا أن (ابن خلدون) قد انحرف عن هذا المنهج إنحرافاً شكلياً يمكن علاجه ، في حين أن (كونت) قد إنحرف عنه إنحرافاً جوهرياً كبيراً لا سبيل الى اصلاحه إلا بهدم جميع ما بناه وانشائه على أسس أخرى (٣٤) .

رابعاً ـ اقتباسات (كونت) من العلماء :

كثيرة هي اقتباسات (كونت) من العلماء الذين سبقوه أو الذين عاصروه ، وقد تأثر ببعض آرائهم . وأول من تأثر بهم هو استاذه (سان سيمون) . ويتضح ذلك في ان الاستاذ قد أوحى له بطائفة من الافكار العامة ووجهات النظر التفضيلية فيما يتعلق بفكرته عن فلسفة التاريخ ، وبين الاستاذ للتلميذ ، ضرورة إدماج نوعي (البحوث العلمية

والسياسية) ، في بحث واحـد ، وذلك بانشاء علم يمكن أن يكون عـلم الاجتماع ، ثم بانشاء سياسة يمكن أن تكون علمية . ولم يكن بأمـكان عقل (كونت) ان يؤلف بين هذين النوعين من الدراسات لو لم يعرف (سان سيمون) (٣٥) . أي أن (كونت) عندما قسم ظواهر الاجتماع إلى قسمين هما : الديناميك الاجتماعي ، والستاتيك الاجتماعي ، ومزج حقائقهما بعضها ببعض ، ووحد أغراضهما وأسسهما ووضعهما تحت لواء علم واحد ، سماه أولاً « علم الطبيعة الاجتماعية » (الفيزياء الاجتماعية) ، فأن هذا المصطلح كان قد تطرق اليه (سان سيمون) (٣٦) من قبل . وهناك من يقول ان (كونت) استعار مصطلح (الفيزياء الاجتماعية) من العالم البلجيكي (جاك كتليه Quetelet . J) (١٧٩٦ ـ ١٨٧٤) ثم عاد فسماه بالسوسيولوجيا أي علم الاجتماع (٣٧) .

ويذهب بعض الكتاب والباحثين إلى مهاجمة (كونت) واعتباره مقلداً لأفكار (سان سيمون) ، ومن هؤلاء (برودون proudhom) (١٨٠٩ ـ ١٨٦٥) الذي هاجمه ، وأظهر احتقاره لفلسفته ، فقد أكد ان نظريات (كونت) الاجتماعيـة ليست إلا تكراراً لنظريات (سان سيمون) ، أما (ماركس) فأنه يقلل من أهمية (كونت) كرجل من رجال العلم ، وينسب فضل أقامة دعائم علم الاجتماع الحديث الى (سان سيمون) (٣٨) ويتفق كل من (دوركايم) و (ماكسيم لروا Maxime oroy) مـع (ماركس) في إنه يرجع الفضل في انشاء علم الاجتماع الى (سان سيمون) وليس إلى (أوجيست كونت) (٣٩) .

كما ان (كونت) أخذ عن (بيكون) المقولة التي تذهب إلى ، ان كل معرفة علمية تعتمد على الظواهر التي لوحظت ملاحظة جيدة ، أول

مجموعة العلوم الوضعية كلها تعد أساساً ضرورياً للفلسفة الوحيدة التي نستطيع الوصول اليها . ويدين الى الفيلسوف الفرنسي (ديكارت) (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) بفكرته عن وحدة المنهج ووحدة العلم . ونستطيع القول بأن (كونت) قد أخذ عن (بيكون) فكرته عن مادة العلم (مضمون العلم من الوجهة الموضوعية) ، وأخذ عن (ديكارت) فكرته عن صورتها (صورة العلم من الوجهة الشكلية المنطقية) (٤٠) .

أما عن تأثر (كونت) بـ (ابن خلدون) فهو أمر راجح ، فعلى الرغم من ان الاول لا يعرف اللغة العربية ، إلا ان « مقدمة » (ابن خلدون) قد أوجزها (جزسان دي تاسي) ونشرها عام (١٨٢٤) في في باريس ، كما أن المستشرق (دي سلان) نشر عام (١٨٤٤) وبالفرنسية ما كتبه (ابن خلدون) عن نفسه وتاريخ حياته . وقام المستشرق (دى سلان) أيضاً بترجمة كتاب تاريخ البربر في شمال أفريقيا لـ (ابن خلدون) في أربعة مجلدات وكان ذلك في سنتي (١٨٤٧) و (١٨٥٦) ، فآراء (ابن خلدون) وبعض مؤلفاته وباللغة الفرنسية ، كانت تسود الجو العلمي الفرنسي ، ورجل مثل (كونت) يهمه أمر علم الاجتماع لايمكن أن يجهل ذلك (٤١) .

أما عن « الوضعية » فأن بذورها قد علقت في عقله وتأثر بها نتيجة لقراءاته لكتابات الفيلسوف الألماني (كانت Kant) (١٧٢٤ ـ ١٧٩٤) ، وخير دليل على ذلك الرسالة التي حررها (كونت) الى صديقه (شتاهل) (Eichthal) في ١٠ كانون الاول (١٨٢٤) حيث كتب فيهـا يقول « كثيراً ما لاحظت « كانت » فوجدت إنه ليس عقلاً شاخاً فحسب ، بل انه أيضاً أكثر الميتافيزيقيين قرباً واتصالاً بالفلسفة الوضعية » (٤٢) .

كما أن (كونت) كان قد أستمد منهجه الوضعي من أسس الفلسفة الوضعية عند (شلنج) (٤٣) . واستمد أيضاً الاساس العلمي لفلسفته بشكل مباشر من (دي بونالد De Bonald) والكاتب الفرنسي (جوزيف دى ميتر J . De Meistre) (١٧٤١ ـ ١٨٢١) (٤٤) . واستعار تعريف التقدم ـ سيطرة الانسان على المحيط الطبيعي ـ من هلفتيوس (٤٥) . وأخذ الشيىء الكثير عن (هوبز) (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) ، بل استعار منه في البدء مصطلح (الفيزياء الاجتماعية) (٤٦) .

ولقد مر علينا سابقاً أن قانون الحالات الثلاث كان قد استمده من أكثر من مصدر ، وتأثر بأراء الكثير من العلماء فيما يتعلق بذلك القانون ، وكذا الحال فيما يتعلق بالفلسفة الوضعية ، أو الفيزياء الاجتماعية (علم الاجتماع) ، أو بقية الاقتباسات ، وإن دل هذا على شيىء ، فانه يدل على أن تلك الآراء لم تكن من ابتداع (كونت) .

خامساً ـ آراؤه المحافظة :

إتسمت بعض أراء (كونت) بالمحافظة والرجعية ، وكانت تلك الآراء سبباً في تخليه وإنفصاله عن استاذه ، وتخلي تلاميذه ومويديه عنه . فقد وقف (كونت) ضد الافكار الثورية ، ودعا إلى ثبوت الانظمة ـ كما مر علينا ـ وبالاضافة الى ذلك دعا إلى فصل السياسة عن العلم ، أي أن يكون الطلاب بعيدين عن الاحزاب السياسية ، لأن تلك الاحزاب ، في نظره ، تثير القلاقل والفتن والخصومات وتضعف الروح الاخلاقية لدى النشيء وتعمل على افساد طباعهم البريئة ، لذلك دعا إلى ابعادهم عنها

بكل السبل الممكنة (٤٧) . كما انه نشر تعاليمه التي تدعو العمال الى أن يستكينوا ويذعنوا للرأسماليين وإن يطيعوا قساوستهم الوضعيين لـذا كانت أفكاره الاجتماعية والسياسية ذات طابع رجعي (٤٨) . وقال أيضاً « إنه في صالح البروليتـاريا ان يتركـز رأس المـال في أيدي الأثرياء والاشراف ، لأنه بهـذه الطريقة وحدها يمكـن ضمان الارشاد المركز الذكي ، فقد إنتهت مرحلة الطبقة الوسطى ، وإن وجود الاشراف الأثرياء يطابق وجود الوكالات التي تعمل من أجل خير الكائن كله » (٤٩) . لذلك فهو لم يهتم بعلم الاقتصاد ، واعتبره علماً مشاغباً يثير الفتن والقلاقل ، فعصب عينيه عن رؤيته (٥٠) .

وأخيراً إذا كان بعض المؤرخين لعـلم الاجتماع يرون أن (كونت) هو الذي أوجد ذلك العلم ، فأن هذا الوجود جاء مشوهاً وناقصاً ، وتابعاً للنظام القائم ، وغاية العلم عنده تبريريه ، وايديولوجيته محافظة ، تنم عن أفكار وأراء ذاتية . فأفكاره في جملتها لا يمكن ان تكون نظرية اجتماعية بالمعنى المعروف ، بل تعتبر أراء في المجتمع ، وفي ظاهراته ، وفي عـــلم الاجتماع ، وجاءت تلك الأراء ضمن فلسفته الوضعية وإذا كان (كونت) قد أعطى لعلم الاجتماع أسمه والغاية التي انشىء من أجلها فأنه لم يطبق ما نادى به (٥١) .

هوامش البحث

(*) تعتبر « المقدمة » المجلد الاول من كتابه المعروف « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » .

(١) الدكتور السيد محمد بدوي : مبادىء علم الاجتماع ، ط ٢ ، القاهرة : دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ، ص ١٠٨ .

(**) غلبت على (كونت) نزعة الفيلسوف في كتابه هذا ، وأصبحت معظم كتاباته بحثاً قيماً في مباحث فلسفة التاريخ .

الدكتور قباري محمد اسماعيل : علم الاجتماع الفرنسي ، الاسكندرية : دار الكتب الجامعية ، ١٩٧١ ، ص ٩ .

(٢) الدكتور عبد الكريم اليافي : تمهيد في علم الاجتماع ، ط ٣ ، دمشق : مطبعة جامعة دمشق ، ١٩٥٧ ، ص ١٥٦ .

(٣) الدكتور غريب سيد احمد ، الدكتور عبد الباسط محمد عبد المعطي ، الدكتور علي حلبي : المدخل في علم الاجتماع المعاصر ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٤ ، ص ١٩ ـ ٢٠ .

(٤) المرجع نفسه : ص ١٨ .

(٥) ليفي بريل : فلسفة أوجيست كونت ، ترجمة الدكتور محمود قاسم ، الدكتور السيد محمد بدوي ، ط ٢ ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٢ ، ص ٢٨ ـ ٢٩ .

(٦) الدكتور السيد محمد بدوي : مبادىء علم الاجتماع ، ص ١٠٧ .

(٧) الدكتور عبد الكريم اليافي : تمهيد في علم الاجتماع ، ص ١٦٥ .

(٨) الدكتور عبد الجليل الطاهر : مسيرة المجتمع ، بيروت : صيدا ، المكتبة العصرية ، ١٩٦٦ ، ص ١٧٨ .

ليفي بريل : فلسفة أوجيست كونت ، ص ١٢ .

(٩) الدكتور عبد الجليل الطاهر : مسيرة المجتمع ، ص ١٧٩ .

الدكتور عبد الكريم اليافي : تمهيد في علم الاجتماع ، ص ١٥٧ .

(١٠) الدكتور قباري محمد اسماعيل ، علم الاجتماع الفرنسي ، ص ٧٣ .

ليفي بريل : فلسفة أوجيست كونت ، ص ٥٠ ـ ٥١ .

(١١) الدكتور طلعت عيسى : سان سيمون ، القاهرة : دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩ ، ص ١٣ .

الدكتور عبد الجليل الطاهر : مسيرة المجتمع ، ص ١٧٤ .

(***) أطلق (تيما ستيف) وصفاً على (كونت) يشبه ذلك ، فقد وصفه بأنه كان ميتافيزيقيا مفلساً

Nicholas S . Timasheff : Sociological Theory , its Nature and Growth , Revised edition , Random House , N . Y . 1964 , p . 29 .

كما أن (موريس كنزيرك) وصف (كونت) بأنه كان ميتافيزيقيا رغماً عنه ، وإن فهمه لطبيعة المنهج الوصفي يعتمد على تصورات ميتافيزيقية لم يخضعها للأختبار الدقيق .

Morris , Ginsberg : Sociology , Oxford uuiversity press , london , 1940 . p . 222 .

(١٢) ت . ب . بوتومور ، م . ربل : في سوسيولوجيا ماركس وفلسفته

الاجتماعية ترجمة ، محمد حافظ يعقوب ، دار دمشق ، ١٩٧٢ ، ص ١٢ .

(١٣) N . S . Timasheff : p . 19 .

(١٤) الدكتور قبارى محمد اسماعيل : علم الاجتماع والفلسفة ، المنطق ، ج ١ ، ط ٢ ، بيروت : دار الطلبة العرب ، ١٩٦٨ ، ص ١٩٢ .

(١٥) الدكتور قباري محمد اسماعيل : الاتجاهات المعاصرة في مناهج علم الاجتماع ، بيروت : دار الطلبة العرب ، ١٩٦٩ ، ص ٢١١ .

(١٦) الدكتور علي عبد الواحد وافي : عبقريات ابن خلدون ، القاهرة : دار عالم الكتب ، ١٩٧٣ ، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

(١٧) الدكتور علي عبد الواحد وافي : مقدمة ابن خلـدون ، ج ١ ، لجنة البيان العربي ، ١٩٥٧ ، ص ١٥٨ .

(١٨) س . ى . پوپوف : نقد عـلم الاجتماع البرجوازي المعاصر ، ترجمة ، نزار عيون السود ، ط ٢ ، دار دمشق للطباعة والنشر ، ١٩٧٤ ، ص ١٣ ـ ١٤ .

(١٩) انظر : الدكتور عبد الجليـل الطاهر : مسيرة المجتمع ، ص ٧١ ـ ٧٦ .

(٢٠) الدكتور عبد الجليل الطاهر : مسيرة المجتمع ، ص ١٠٥ ـ ١٠٧ .

(٢١) المرجع نفسه : ص ١٧١ .

(٢٢) Don Martindale : The Nature and Types of Sociological Theories B oston : 1963 , p . 56 .

(٢٣) الدكتور عبد الجليل الطاهر : مسيرة المجتمع ، ص ١٦٩ .

(٢٤) هربرت ماركيوز : العقل والثورة ، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ ، ص ٣١٥ .

(٢٥) نقلاً عن : هربرت ماركيوز : العقل والثورة ، ص ٣٣١ .

(٢٦) نقلاً عن : هربرت ماركيوز : العقل والثورة : ص ٣٣٢ .

(٢٧) بوتومور ، ربل : في سوسيو لوجسيا ماركس وفلسفته الاجتماعية ، ص ١١ .

(٢٨) د . عبد الجليل الطاهر : مسيرة المجتمع ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .

(٢٩) بوتومور ، ربل : في سويسيو لوجيا ماركس وفلسفته الاجتماعية ، ص ١٣ .

(٣٠) ماركيوز : العقل والثورة ، ص ٣٣١ .

(٣١) الدكتور قبارى محمد اسماعيل : الاتجاهات المعاصرة في مناهج علم الاجتماع ص ٢٣٩ .

(٣٢) بوتومور ، ربل : في سوسيولوجيا ماركس وفلسفته الاجتماعية ، ص ١١ .

(٣٣) پوپوف : نقد علم الاجتماع البرجوازي المعاصر ، ص ١٣ .

(٣٤) الدكتور علي عبد الواحد وافي : علم الاجتماع ، القاهرة : مكتبة نهضة مصر ، ١٩٦٦ ، ص ١١٠ .

(٣٥) ليفي بريل : فلسفة أوجيست كونت ، ص ٢٤ .

(٣٦) الدكتور قبارى محمد اسماعيل : علم الاجتماع الفرنسي ، ص ٩ .

(٣٧) الدكتور علي عبد الواحد وافي : علم الاجتماع ، ص ١٠٠ .

الدكتور عبد الكريم اليافي : تمهيد في علم الاجتماع ، ص ١٣٣ ـ ١٣٤ ، ص ١٥٥ .

(٣٨) الدكتور طلعت عيسى : سان سيمون ، ص ١٠ .

(٣٩) المرجع نفسه : ص ١١ .

(٤٠) الدكتور قبارى محمد اسماعيل : الاتجاهات المعاصرة في مناهج علم الاجتماع ، ص ٢١٥ .

ليفي بريل : فلسفة أوجيست كونت ، ص ٧٣ ـ ٧٤ .

(٤١) المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية : اعمال مهرجان ابن خلدون ، القاهرة . ١٩٦٢ ، ص ٥٢ ـ ٥٣ :

(٤٢) الدكتور قبارى محمد اسماعيل : الاتجاهات المعاصرة في مناهج علم الاجتماع ، ص ٢١٥ .

(٤٣) هربرت ما ركيوز : العقل والثورة ، ص ٣١١ .

(٤٤) الدكتور طلعت عيسى : سان سيمون ، ص ١٢ .

ليفي بريل : فلسفة أوجيست كونت ، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ .

(٤٥) الدكتور عبد الجليل الطاهر : مسيرة المجتمع ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

(٤٦) المرجع نفسه : ص ١٩٣ .

(٤٧) الدكتور مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الاول ، القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ، ص ٢٤٤ .

(٤٨) بوبوف : نقد علم الاجتماع البرجوازي المعاصر ، ص ١٤ .

(٤٩) الدكتور عبد الجليل الطاهر : مسيرة المجتمع ، ص ١٩١ .

(٥٠) المرجع نفسه : ص ١٩٢ .

(٥١) Howard Becker and A . Boskoff (eds) : Modern sociological Theory in continuity and change , The Dryden press ; N . Y . 1957 , p . 7 .